اللهُ أكبر! هلكت خيبر!

للأستاذ أحمد الشايب

[خرج النبي من المدينة لغزو خيبر في بقية المحرم من السنة السابعة وفتحها في صفر]

— ١ —

مر « كنانة بن الربيع » على « حيي بن أخطب » سيد بني النضير فرآه واجماً ينكت الأرض بعود في يده ثم يصعّد الطرف بين الفينة والفينة في حصون خيبر

فقال كنانة : أرى هذه القرية قد راعتك بحصونها، وحلت من فؤادك محلاً . طبت نفساً وطابت خيبر !

قال حيي : وكيف تطيب نفسي ؟ وها نحن أولاء منذ ثلاث سنوات نعيش في غير أوطاننا مشردين في الآفاق ! ونحن الذين بنينا « يثرب » بأيدينا ، فأصلحنا أرضها ، وأجرينا ماءها ، وغرسنا جناتها ، وأقمنا حصونها ؛ وترانا اليوم ننزل في غير دارنا ، ونأكل من غير زادنا، لأن محمداً افتتحها علينا، وأخذها عنوة منا !

لله تلك الأيام العزيزة التي قضيناها هناك أعزاء أشداء ! ! كنا نقاتل الأوس بالخزرج، ونقاتل الخزرج بالأوس ، ونسعر نيران العداوة بينهما ونمدهما بالأسلحة ويمدوننا بأموالهم فما زالون في تناقص وفناء ، وما نزال في نعمة سابغة ، وسيادة دائمة .

ولكن جاءنا ذلك الساحر الطريد ، ففرقهم عنا، ونفر موالينا ولا ندري كيف جمع بين قلوبهم الفائرة ، وغسل أحقادهم الثائرة وشفى جراحهم الناغرة، وجعلهم أمة واحدة يأكل بهم يهود والعرب

قال كنانة: ولكننا أحسن حالاً من بني عمومتنا فلقد أخذنا من أموالنا ما تحمله دوابنا ونزلنا بخيبر هذه القرية ذات البروج المشيدة فأوينا إلى ركن شديد . أما بنو قينقاع فياحسرتاه على ما أصابهم، فعندما أخرجوا من المدينة قصدوا (أذرعات) فتناولتهم أوبئة الشام، فما انقضى الحول على نسمة تحت الشمس منهم !

— ونسيت « قريظة » إن قلبي ليطفح بالنيران كلما ذكرتهم ! ماذا جنوا حتى يحكم محمد السيف في رقابهم؟ ويح يثرب ! خلت من يهود !

— وكأنك أنت الذي جنى عليهم يا حيي ، حركتهم ليثوروا على محمد وينبذوا له عهده . وأطمعك في ذلك اجتماع الأحزاب عليه ، ولكنه سرعان ما خُذل الأحزاب ، وفُت في عضدهم ، وسرعان ما انقلب محمد على بني عمنا ، فشفى غيظه منهم

— أجل ؛ وما أردت أن يُطعن محمد بخنجرين ، أقتلهما الذي يأتيه من وراء ظهره ! ولكني كلما دبرت كيداً أبطله بسحره ، وكأنه ملهم يوحى إليه ! !

— أو تشك في أنه النبي ؟ ! وأنت من أهل العلم والكتاب

— كلا ، ما ارتبت فيه . ولكنه جاءنا من العرب وحسبناه من إسرائيل ! كيف نتبعه فيعلو به أجلاف الأعراب على أهل الكتاب ؟ لا ورب موسى لا نلقي إليه القياد أبداً ، وسنظل على بغضه وحربه حتى نفنيه أو نفنى دون ذلك .

— أتظن الرجل الذي خضعت قريش له وطلبت منه السلام في «الحديبية» ينكسر لنا ؟ ما أظنه أسكت قريشا إلا ليثور علينا وعلى قبائل العرب . أليس هو الذي يقول :

« أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا كلمة الإسلام فإذا قالوها حقنوا مني دماءهم » .

— ولكنّ قريشاً لم تقلها

— ستقولها يوم أن يُجلب عليها بخيله ورجله ، ويخيّرها بين الكلمة أو السيف

— ونحن أيتركنا ههنا ؟

— إخاله سيتعقبنا

— أو بلغك نبأ ؟

— أما من محمد فلا ؛ كيف يدري الناس من أمره شيئاً وهو حوّل قلّب ؟ إذا أراد أن يحارب شمالاً اتجه جنوباً !

— ومن أدراك إذن بما تقول ؟

— إنها رؤيا رأتها بفتك التي تحتي فأوّلتها

— صفية بنتي ! إنها لترى وكأنها ترى بعينيها ! ماذا رأت الخبيثة؟

— كأن قمراً من السماء سقط في حجرها

— إنه وايم الحق محمد !

— ٢ —

لا هُمّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصـــدقنا ولا صلّينا
فاغفر فـــداء لك ما أبقينا وألقينْ سكينةً علينا
وثبّتِ الأقدام إن لاقينا إنا إذا صيح بنا أتينا
وبالصـــياح عوّلوا علينا

على توقيع هذا النشيد المطرب ، وترجيع صوت الحادى الليّن سارت قافلة المسلمين تحت ظلال الراية البيضاء تتبع محمد ابن عبد الله ، وما زالت تصعد وتهبط حتى تراءت للعين حصون خيبر شامخة تشق السماء وقد لفّها غلس الدجى ، وعلى قيد أميال منها وقف النبي يتأملها فوقف الركب معه ، فرفع يديه يناجى ربه ويقول :

« اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما أذرين ، فإنا نسألك خير هذه القرية ، وخير أهلها ، وخير ما فيها ؛ ونعوذ بك من شرها ، وشر أهلها ، وشر ما فيها »

وأمضى المسلمون ليلتهم على مرأى منها ، فلما أصبحوا قام النبي يقول :

« الله أكبر ، الله أكبر ، هلكت خيبر ! إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين »

وانطلق المسلمون يكبرون ؛ وكأنهم كلما رفعوا بالتكبير أصواتهم ، بالغوا فى إظهار إخلاصهم لبارئهم ؛ وإن من الجبال لما يهتز لتكبيرهم ودعائهم ، وإن منها لما يتصدع من خشية الله

فقال لهم النبي : « اربعوا على أنفسكم ، إنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم »

* * *

وخرج عمال خيبر إلى مزارعهم فراعهم جيش المسلمين فرجعوا إلى أهلهم يصيحون :

— محمد والخميس !

وفزعت خيبر وأغلقت أبوابها ، وظل المسلمون يحاصرونها ويضيقون عليها . ومن برج مشيد أطل « حيي بن أخطب » على جيش المسلمين فرأى الراية البيضاء فى يمين « على بن أبى طالب » فكأنما رأى ملك الموت يدلف إليه ، فقال :

— تباً لكم ! ألا فتى غير هذا يحمل اللواء ؟

والله ما ذقنا العذاب إلا تحت لوائه !

أخرجنا من بيوتنا بيثرب ، وها هو ذا جاء يخرب قريتنا !!

فلمحه الإمام يتكلم بصوت خفيض ، فقال له :

— ماذا تقول يا عدو الله ؟ !

قال حيي : وماذا تريدون منا — معشر المسلمين — ألم يكفكم أن أخرجتمونا من ديارنا وأموالنا ؟ فجئنا وحططنا رحلنا بهذه القرية ، فما كدنا نستقبت ريثنا بعد أن قصصتم أجنحتنا حتى جئتم إلينا بخيلكم ورجلكم ، فإلى أى أرض نهرب من شركم ؟ !

قال على : ألست يا عدو الله الذى جمت علينا الأحزاب من كل فج ، فصرنا فى أضيق من كفة الحابل ، ولم تكتف بذلك حتى هجت قريظة فنبذوا إلينا عهدنا فى ساعة العسرة فوقفنا بين شقى الرحى . وحسبت أنك بذلك قضيت علينا ، ولكن الله ربنا مشتت شملكم ، وكتب على أيدينا قتلكم

قال حيي : إنكم لن تصلوا إلينا ، فأنتم فى الأرض ونحن فى السماء ، إن سهمكم لن يخرق حجراً ، وخيلكم لن تكون طيراً . فامكثوا ما شئتم أن تمكثوا وإن لنا فى كنوزنا وخيراتنا لسعة

قال على : أتحسب أن حصونكم ما نعتكم ؟ ! إن الذى دك الجبل تحت أقدام موسى هو الذى يخسف بها الأرض . فنلتقى على سواء وكأنى بكم يا بنى النضير بعد ليال ، فطاحت رءوسكم ، وأصبحتم طعمة للطير والسباع فأسلموا تسلموا

قال حيي : لن يأخذ منا وعيدكم شيئاً

قال على : وأنتم لا تعجزون الله ، يا خيل الله اركبى ! !

* * *

واستمر المسلمون أياماً يحاصرونهم ، فلما أجهدوهم نزل اليهود إليهم يبارزونهم ، فدارت الدائرة عليهم فأسرت رجالهم ، وسبيت نساؤهم وذرياتهم

قال على لحيي وهو مقدم للقتل : ألم يغن عنك حصنك شيئاً ؟ لولا أويت إلى ركن شديد !

قال : وما هو ؟

قال : ربك الذى نسيت ، ودينه الذى أنزل ! ونبيه الذى أرسل !

قال : خذ رأسى إن كانت لك به حاجة

قال : أجل ، إن السيف ليضحك حينما يجز رقاب أعداء الله

* * *

وتقدم « دحية الكلبي » إلى صفية بنت حيي وقال لها :

تعالَىْ يا ابنة حيي ! لقد وجدت فيك عروسى التى أنتظرها

فأمسك بيدها ، فانفلتت منه كالهرة العربية وقالت له :

ومن تكون أنت ؟

قال : رجل من بنى كلب

قالت : لست هناك ! مالك وسيدة قريظة والنضير ؟ !

قال : ومن تنتظرين ؟

قالت : القمر المنير ! !

قال : أتطمعين فى رسول الله ! ؟ لشد ما خدعتك نفسك ، وحدثتك الأمانى . أبعد عالج من علوج يهود تطمحين إلى الطاهر الطيب ؟ !

قالت : إن الكريمة كفء الكريم

وسمع النبى بحديثها فاختارها لنفسه زوجاً وجعل لدحية بنت عمها ...

ومضى النبى بعد أيام بها ، وهو فى طريقه إلى المدينة تحت قبة ضربت لها . فلما انبثق نور الفجر وخرج النبى لصلاته ، رأى « أبا أيوب الأنصارى » متوشحاً سيفه قريباً من بيته

فقال له : مالك يا أبا أيوب ؟

قال : يا رسول الله خفت عليك من هذه المرأة وهى امرأة قتلت أباها وزوجها وقومها وكانت حديثة عهد بكفر فخفتها عليك

فقال النبى : « اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظنى »

وحدث صفية بذلك فقالت :

والله يا رسول الله لأنت أعز على من أبى وأمى وأنا على دينك

— ٣ —

وبات قريش بمكة تتسمع أخبار الرسول مع خيبر ، وتمنت أن تدور الدائرة على المسلمين ، فتكفيهم يهودُ شر قتالهم ، وبينما كانوا يرصدون الطرق لعلهم يقفون على خبر يبل غلتهم ، ويطفئ أوار غيظهم رأوا قادماً فى شملة أعرابى من بعيد فتبينوه فإذا هو « الحجاج بن علاط السلمى »

قالت قريش : هذا لعمر الله عنده الخبر !

قال لهم : وما ذاك ؟

قالوا : بلغنا أن القاطع خرج إلى خيبر وهى بلد يهود وريف الحجاز

— بلغنى ذلك وعندى من الخبر ما يسركم

— إيه يا حجاج !

— هُزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط ، وقُتل أصحابه قتلاً لم تسمعوا بمثله قط ، وأسر محمد أسراً ، وقالوا لا تقتله حتى نبعث به إلى أهل مكة فيقتلوه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم

فصاحت قريش طرباً ، وقالوا لأنفسهم : قد جاءكم الخبر ! وهذا محمد إنما تنتظرون أن يُقدَّم به عليكم ، فيقتل بين أظهركم

قال الحجاج : فأعينونى على جمع مالى بمكة ، وعلى غرمائى فإنى أريد أن أقدم خيبر فأصيب من فلّ محمد وأصحابه قبل أن يسبقنى التجار إلى ما هنالك

قالوا : لك ما تحب وترضى ، وأعانوه حتى جمع ماله كله

فلما سمع العباس بن عبدالمطلب الخبر جاء الحجاجَ وهو جازع وقال له :

— ويحك يا حجاج ! ما تقول ؟

— أكاتم أنت على خبرى ؟

— إى والله !

— فالبث على شيئاً حتى يخف موضعى ، ثم سار إليه العباس فقال له الحجاج : الخبر والله على خلاف ما قلت لهم ، خلفت رسول الله ؛ وقد فتح خيبر ، وخاصته والله معرّساً بابنة ملكهم ؛ وما جئتك إلا مسلماً .

ولكن قريشاً تحسبنى لا أزال على دينها فأطوِ الخبر ثلاثاً ، حتى أُحجِز القوم . ثم أُسْمِعْه ، فإنه والله الحق

قال العباس : ويحك ! أحق ما تقول ؟

— إى والله

— ولكنك كذبت الناس ، ودينك لا يسمح بالكذب

— استأذنت الرسول فى أن أقول فأذن ، وكانت حيلةً لأجمع مالى وأخرج من بين أظهرهم إلى غير رجعة . والآنَ أذهب

— على عين الله

فلما كان بعد ثلاثة أيام تخلق العباس وأخذ عصاه وخرج يطوف بالبيت

قالت قريش : يا أبا الفضل ! هذا والله التجلد لحر المصيبة

قال : كلا والله الذى حلفتم به ، لقد فتح محمد خيبر وأعرس بابنة ملكهم ، وأحرز أموالهم

قالوا : ومن جاءك بهذا الذى تزعم ؟

قال : الذى جاءكم بما جاءكم به ، ولقد دخل عليكم مسلماً ، فأخذ ماله ، وانطلق لمحمد وأصحابه ليكون معه

قالوا : يا لعباد الله ! أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن ! أولى له ! انفلت عدو الله !

قال العباس : الله أعلم بعدوه ووليه ... !

أحمد الشامى

أحدث مطبوعات

مكتبة النهضـــة المصرية

لأصحابها: حسن ويوسف محمد وأخوانهما

١٥ شارع المدابغ تليفون ٥١٣٩٤

		مليم
من الأدب التمثيلي	سوفوكليس	١٠٠
أديب	الدكتور طه حسين بك	١٠٠
عابر سبيل (ديوان)	للأستاذ عباس محمود العقاد	٨٠
عالم السدود والقيود	» » »	٨٠
مسرحيات توفيق الحكيم جزءان	للأستاذ توفيق الحكيم	١٨٠
تاريخ التعلم في مصر في عهد محمد علي باشا	للأستاذ أحمد عزت عبد الكريم	٧٠٠
قضية الفلاح	للآنسة ابنة الشاطئ	١٠٠
السينما	للأستاذ أحمد بدرخان	١٠٠
جوله في ربوع أوربا	للأستاذ الرحالة محمد ثابت	٨٠
» » آسيا	» » »	٨٠
» » الشرق الأدنى	» » »	٨٠
» » أفريقيا	» » »	٨٠
» » أستراليا	» » »	١٠٠
» » العالم الاسلامي	» » »	١٨٠
فلسفة اللذة والألم	للأستاذ إسماعيل مظهر	١٥٠
مصر في قيصرية الاسكندر الفدوني	» » »	٦٠
الحب الأول أو قيصر وكليوباترة	» » »	٥٠
علم الاجتماع	للأستاذ مصطفى فهمي	٧٠
الحرب والغازات	للأستاذ عبد الرحيم رشوان	٥٠
في الطريق	للأستاذ عبد القادر المازني	١٥٠
اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للامام فخر الدين الرازي.	الشيخ مصطفى عبد الرازق بك	٦٠
جهاد الأمم في سبيل الدستور	الأستاذ محمد شوكت التوني	١٠٠
التحقيق التام في علم الكلام	محمد الحسيني الظواهري الشافعي	٨٠
الأيام المائة عهد وزارة رقمة علي ماهر باشا	الدكتور محمود عزمي	١٠٠
وحي الخاطر والشعر المنثور	الأستاذ علي سعد مراد	١٠٠
قانون العقوبات المصري	الدكتور السعيد مصطفى السعيد	٢٥٠
النظم الاسلامية	الدكتور حسن ابراهيم حسن والدكتور علي ابراهيم حسن	٢٥٠
نيقشه	الأستاذ عبد الرحمن بدوي	١٠٠
رضا شاه پهلوي	الأستاذ أحمد محمود الساداتي	١٠٠
الطبع والصبغة في الشعر	الأستاذ محمد المهياوي	١٠٠
دائرة المعارف المنزل الحديث أربعة أجزاء		٦٥٠

سيظهر قريبا جدا الكتاب الذي صودر في سويسرا وأحدث ضجة في ألمانيا والعالم

هتلر يتكلم (قال له)

تأليف : Hermann RAUSCHNING

تعريب : كاتب من الكتاب المصريين المعروفين

سيظهر في حوالي ٤٥٠ صفحة

الاشتراك قبل الطبع ١٠ / وبعد الطبع ١٥ خلاف أجرة البريد ٣ قروش

التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية

دراسات لكبار المستشرقين

رتبها وترجمها عن الألمانية والايطالية

الأستاذ عبد الرحمن بدوي

أعمق بحث في جوهر الحضارة الاسلامية ،

وأدق تحليل للحياة الروحية في الاسلام

الثمن ٢٠ قرشا — البريد ٣ قروش

سجل تجاري رقم ٢٤٤